

تعريب التعليم في الجزائر ومساكله

الأستاذ عبد الحميد المهيبي - الجزائر

لقى الأستاذ عبد الحميد المهيبي رئيس اللجنة المصغرة للتعريب في الجزائر محاضرة قيمة في مقر الجامعة الجزائرية حول تعريب التعليم ، تعطي صورة عما يتخبط فيه تعريب التعليم في المغرب العربي من مشاكل ، ونحن نلخصها فيما يلي :

ولن نستطيع أن نوفى جميع جوانب المشكل حتما من الدرس في محاضرة واحدة . ولكن نكتفي بآثار القضايا التي يتكون من مجموعها ما نسميه قضية « تعريب التعليم » .

وأول الاعتبارات التي ينبغي اثارها قضية اللغة العربية نفسها . فهي ليست اللغة الام لجميع الجزائريين ولكنها اللغة الوطنية لجميع الجزائريين .

واختيار هذه اللغة لم يات ارتجالا ولا بصفة اصطناعية ولكنه تم عبر القرون والتجربة التاريخية الطويلة . وكانت لغة التعليم في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي هي اللغة العربية في جميع مراحل الدراسة . وهذه حقيقة تجعلنا نقرر أولا بأن هذه المشكلة تهم سائر الجزائريين وبأن حلها ينبغي أن يشارك فيه جميع الجزائريين بدون استثناء .

الحقيقة الثانية أن العربية كلفة ظهرت فجأة على المسرح العالمي وهي مكتملة من جميع النواحي . ولم يستطع اللغويون على ما أمرف إيجاد تحليل كاف لهذه الظاهرة .

ذكر المحاضر بتاريخ اللغة العربية الطويل وتطورها واضطلامها ابان العصر العباسي بدور ضخم

ذكر المحاضر في البداية أنه لا يريد القاء محاضرة بالمعنى المتعارف وإنما اثاره المناقشة حول الموضوع . ثم قال ان ما سيعرضه من افكار ليست افكاره ، وإنما آراء نضجت مع الزمن عند المهتمين بالتربية في الجزائر .

وقال ان تعريف المشكل يضمننا في نهاية التحليل وجها لوجه ، أما ضرورة تحديد اختيار لغة أو لغات التعليم ، وهو اختيار لم تتم به بعد ، ذلك لان على الجزائر أن تضع سياسة بعيدة المدى للتعليم ، وهنا يلقي السؤال : هل يحسن بنا أن نتخذ لغة واحدة للتعليم ؟ ، وأن الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة كما يتبادر الى الذهن ، فهذه القضايا تثير مجموعة من المشاكل منها ما له صبغة لغوية بحث ، ومنها ما له اتصال بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية في نفس الوقت .

ولهذا فان معالجة المشكل لا يمكن ان تتم الا عن طريق الدراسة الكاملة لكل هذه الجوانب ، والاقترار على جانب واحد يؤدي بنا الى حلول ناقصة .

وقال ان هذا التعقيد الناجم من طبيعة القضية قد يتخذ ذريعة لابقائها دائما تحت الدرس والمناقشة .

هو تمثل مختلف ألوان الحضارات ونقل هذا التراث إلى الأجيال اللاحقة .

ثم أصاب العربية انتكاس نتيجة تخلف المجتمع العربي نفسه . وفي الوقت الحاضر تعرف هذه اللغة نهضة جديدة .

وأشار المحاضر إلى ظهور لهجات التخاطب في البلدان العربية ، مبينا أن هذه اللهجات على اختلافها تكون وحدة تمكن المتكلمين بها من التفاهم بجهد بسيط

وخلص المحاضر من ذلك إلى القول :

باننا أمام لغة قديمة قامت بدور أساسي وأمام لغة خطاب مختلفة احتفظت بوحدتها . ثم أمام ظاهرة ثالثة وهي ظهور ما يسمى باللغة المشتركة أو العربية المعربة التي تجمع الإصالة ونوعا من التبسيط في منطها وتراكيبها بجعلها قادرة ومتفتحة على التيارات اللغوية المتصلة بها بشتى طرق الاتصال .

ثم أشار إلى أن الاستعمار جعل ظل اللغة العربية يتقلص تدريجيا في المدرسة الجزائرية إلى أن تفردت بها اللغة الفرنسية ، وهذا جعل المدرسة أداة لمسح الشعب الجزائري وفرنسته .

ومند الاستقلال ، كان لا بد من تغيير هذه الوضعية ، وأدخل في البداية وكخطوة أولى قدر أدنى من اللغة العربية كمادة درس أساسية في كل فصل .

وهنا وضعت مشكلة الاختيار أينصب على لغة واحدة للتعليم أم ينبغي الاحتفاظ بالازدواجية ؟ .

وقد رأينا كيف أن هذا السؤال صعب الجواب نظرا لتشعب الموضوع ، وكيف أن طبيعة التشعب هذه تتخذ ذريعة لبقاء المشكل دائما تحت الدرس والمناقشة .

وقبل أن نتخذ الجزائر حلا جذريا ، حاولت ألا يكون مجهودها المدرسي استمرارا لنشر الفرنسية في المدارس . فحريت مواد التاريخ والتربية الدينية والخطبة والمدنية والجغرافية مع كثير من التحفظ وحررت السنتان الأولى والثانية من التعليم الابتدائي وأهدت بعض الثانوية المعربة في أوائل الاستقلال . وكان هذا ما يمكن أن نسميه بالتجربة الجزائرية في حقل التعريب .

هل تكفي هذه الإجراءات لإخراج المدرسة الجزائرية من طبيعتها الموروثة وجعلها تعمل وفق الاختيارات الأساسية للجزائر ؟

امتقادي الخاص وكثير من الإخوان في لجنة إصلاح التعليم أن ذلك لا يكفي وإنما إن كانت خفت من هذه الطبيعة الموروثة ، فإن المدرسة الجزائرية ما زالت وسيلة لنشر نوع من الفرنسية غير منظور . وهي لهذا السبب أخطر من المدرسة الفرنسية التي كانت تجابه الجزائريين بما يكرهون كاشفة القناع عن وجهها .

والسبب الرئيسي لهذه الوضعية هو أن المدرسة الجزائرية لا من اختيار بل لتوقفها على اختيار طريقة ناجمة للتعريب ، انتهت إلى الازدواجية : العربية في الدراسات الأدبية (النظريات) والفرنسية في العلوم

هذا الوضع يقدم للطفل الجزائري صوريين ، صورة الماضي متمثلا في اللغة العربية ، وصورة المستقبل وبالتالي للفعالية متمثلا في اللغة الفرنسية .

وإذا استمر الوضع على هذه الحال فإنه يوشك أن يحدث اختلال في شخصية المواطن الذي تكونه وإن امتنا لا نريد أن نزيل ماضيها من الأذهان بعيدا عن الفعالية وقد يرتبط هذا الماضي منها باللغة العربية .

وبعد ما أشار المحاضر إلى الحجج التي يقدمها البعض من قصد حسن نية إصلاح جهاز التعليم وجعله ملائما لتوفير العدد الكافي من الأطارات لمقاومة التخلف ، وتولهم أن المهم أن يكون في البلاد مثل هذه الأطارات وأن اللغة شبه ثانوي . هذا التيار في نظر المحاضر يمتد على نظرة ليس فيها همق ، لأن التعريب لا يمكن أن يكون منافيا لهدف التنمية .

مقدرة اللغة العربية :

ويبدو من الوضع الحالي للتعليم بالجزائر أن هناك تعارضا ظاهريا بين تعريب التعليم وتلقيته . قد ينجم منه الشك في مقدرة اللغة العربية كما قد يكون نتيجة نظرة سطحية إلى واقع العالم العربي .

فمن حيث الشك في مقدرة اللغة العربية ، يمكن أن يرجع إلى أن هناك دولة عربية تستعمل اللغة العربية كأداة لتعليم جميع الصواد ، هي سوريا .

والمختصون بالدراسات اللغوية يؤكدون بأن اللغة العربية قطعت شوطا بعيدا في تطوير نفسها ، واصبحت مرشحة لان تكون لغة عالمية .

نعم هناك مشكل المصطلحات ما زال قائما لكون الجهود الفردية بشأنه مبعثرة غير منسقة . ولكن المشكل حاصل في مستوى معين . هو غير حاصل في مستوى التعليم الابتدائي ولا الثانوي ولا حتى بعض الدراسات الجامعية . وانما يوجد في مستوى الاختصاص الفيق - والبحث العلمي ، والتبادل مع الغير .

فما يقال عن عجز اللغة العربية انما يقال بدون تمحيص . فهي صالحة كل الصلاحية بدون ادنى عائق في مستوى الثانوي على الاقل .

على ان هناك الادعاء القائل بان اللغة العربية صالحة كأداة في تلقين الدراسات الادبية والانسانية ، وغير صالحة لتلقين التقنيات .

اولا : مصطلحات العلوم الصحيحة قليلة ومحدودة .

ثانيا : الصفة التي تمتاز بها المصطلحات هي الدقة والوحدة .

وهذه مطالب غير عسير تحقيقها على جهود العاملين في هذا المجال .

على ان هناك حقيقة يجهلها الكثير ، وهي ان مشكلة المصطلحات في الدراسات الادبية والانسانية ، اكبر منها بكثير في العلوم الصحيحة . وذلك لشعب تلك الدراسات وصعوبة وضع المصطلح الدقيق بشأنها وامتقانا ان هذا الامر الممكوس للغاية . وان القصد من ذلك تبرير الوضع القائم واكثر منه تعبير عن حقائق علمية .

الجانب الثاني : النظرة السطحية الى واقع العالم العربي .

تجارب العالم العربي في ميدان التعريب :

اعتبر المحاضر ثلاث تجارب اساسية

(1) تجربة سماها شاملة ، هي تجربة سوريا .

ليست جديدة، ابتدأت أثناء الحرب العالمية الاولى تمت بتشجيع الخبراء الفرنسيين الذين كانوا يصنعون

التقارير تلو التقارير يؤكدون ان العربية صالحة في جميع مراحل التعليم . وكان حائزهم الى الرغبة في وقف انتشار اللغة الانجليزية في المشرق العربي .

امتت هذه التجربة نتائج يمكن ان تعتبر حجة كافية على صلاحية اللغة العربية . لكنها تصطبغ بنقص عاب السوريون أنفسهم هو عدم اهتمامها بتدريس اللغات الاخرى .

هذا جعل التخرجين ، وخاصة المختصين والمشاركين في البحث العلمي يجدون بعض العمومية في ميادين الاختصاص نظرا لضعفهم في اللغات الاجنبية .

لكن هذا يمثل مرحلة هي الآن في طريق الزوال .

(2) تجربة ولقت في نصف الطريق ، تمثلها ، مصر والعراق

وقفت عند الابتدائي والثانوي والدراسات الادبية والانسانية في التعليم الجامعي ، وبقيت المواد العلمية باللغة الاجنبية .

وكان من نتائج هذه السياسة تناقض واضح يتمثل في انشاء المجامع العلمية اللغوية من جهة ، ورفض استعمال العربية في العلوم من جهة اخرى .

فوقوف التعليم في الجامعة بالعربية لدى العلوم ليس منطقيا ، ولكنه مرتبط باوضاع .

هنا استعرض المحاضر الكفاح الذي خاضه الشعب المصري تحت الاحتلال الانجليزي لفرض اللغة العربية في الابتدائي والثانوي ، واضطرار الحكومة للاستجابة واصرارها على عدم تمميمه على الجامعة .

وكيف ان الجامعات المصرية قامت بمجهودات الشعب الاهلية ولم تساهم فيها الحكومة .

وكيف ان القائمين عليها اقتصروا على تعريب النظريات لانها كانت في متناول مجهوداتهم المتواضعة ولا تكلف كثيرا .

وكيف ان تجربة العراق تشابه كثيرا تجربة مصر ، ثم قال :

ان الاتجاه الذي في سوريا ومصر والعراق هو التفكير الجدي في اكمال الحلقة .

3) الطار المغرب العربي :

تتميز تجربة الطار المغرب العربي بالتوفيق من البت في اختيار لغة واحدة للتعليم ، وتخصيص اللغة الفرنسية لتلقين العلوم والتقنيات .

وهذه تجربة قد تؤدي الى مخاطر ، لانها مبنية على احكام سابقة غير مخصصة .

ثم لخص المحاضر الوضع في العالم العربي ككل ، فقال ان التجربة ككل تعتبر عامل اللغة ، وتناسي اشياء اساسية ، وهي ان حركة التعريب بدأت في وضع سياسي كان العالم العربي فيه خاضعا لنظم استعمارية ، وان المجتمعات العربية في ذلك الحين كانت مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية .

ولهذا فان تجربة التعريب كانت منعزلة تمتد تطوير اللغة بمفردها ، دون البحث في الاسباب المؤدية الى تطوير المجتمع ككل . اذ مدى تطوير اللغة مرتبط بتطور المجتمع . وقد كانت تجربة تستهدف احداث ثورة في اللغة ، في نفس الوقت الذي تريد تلافى احداث ثورة في المجتمع .

وهذا من شأنه ان يؤدي الى الاخفاق .

اذ كيف يمكن ان تتطور اللغة العربية في مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية لا وجود فيها لاساس مادي للعلوم والتكنولوجيا .

التعريب يسدا الان

وعلى هذا ، فان التجربة الحقيقية للتعريب تبدأ الان بعد ان اصبح واضحاً ان هذا لا يمكن ان يتم الا في نطاق ثورة شاملة . في اطار هذه الثورة يمكن ان تستكمل التجربة جميع اسباب النجاح .

النتيجة

انه اذا كان التعريب لم يؤد في نظر الاجانب الى نتائج ايجابية ، فالمسؤول عن ذلك ليس اللغة العربية . ولكن فساد النظم التي كانت سائدة ، تمكس صورة للمجتمع ، ونقا على طبقة محظوظة ، محشوة بالنظريات ، بعيدة عن مجالات التطبيق يتميز بغلبة التكوين العام او الثقافة العامة على حساب العلوم الصحيحة والتقنية .

هذا الوضع لم يتغير جنربا . وهو لسمية مشتركة بين سائر الطار العالم العربي ، ولا تشذ الجزائر عن ذلك .

ان الجزائر تحاول الان ان تقوم بثورة شاملة في جميع المجالات وسلوك سبيل الاصلاحات الجدرية بغية تطوير المجتمع اقتصاديا واجتماعيا . واننا متجهون الان الى اصلاح نظم التعليم بما يوافق اختياراتنا الاساسية . وهذا عنصر مساعد جدا .

سياسة رجعية ؟

على اننا نرى بعض المتحمسين للثورة ينكرون امكانية ان تكون العربية في الجزائر اداة للتربية . ويلهبون الى ابعد من ذلك اذ يتصورون ان العربية التي مضى عليها ربح من الزمن انكشفت فيه واصبحت لغة التعليم الديني فحسب ، وانقطعت عن تيار الحضارات والانكار الحديثة والعلوم التقنية ، لا يمكن ان تكون الا اداة لسياسة رجعية .

ومع ملاحظتنا على هؤلاء انه سواء بسواء يمكن ان تنفذ سياسة رجعية من طريق الفرنسية ، فاننا اذا سلمنا ان العربية بما اصابها من تاخر بفعل تاخر المجتمع ، نرى ان احسن وسيلة لاجبار العربية على القيام بدور سلبي ، هو ابقاؤها بعيدة عن ميدان العلوم الصحيحة . لا فرو اذا اننا اردنا ان تلعب العربية دورا ايجابيا في تطوير البلاد وتحقيق الثورة ، يجب ان نتخذها اداة للعلوم . هذه الاختيارات النظرية . -

اضيف الى ذلك شيئا اساسيا هو الدعوة الى الازدواجية . وبهذا الصدد تعدد مزايا الازدواجية في التعليم وفي الحياة .

امتقد ان الازدواجية ليست ذات معنى واحد . لهذا اللفظ يمكن ان يطلق على اشياء كثيرة تختلف من حيث الدرجة كما تختلف من حيث الطبيعة .

ونحن نرفض الازدواجية مبدليا لاسباب بديهية

هي :

1) ان الازدواجية بين العربية والفرنسية ليس لها سند سكاني .

كان الامر يختلف لو ان الاثنية الاوربية قررت البقاء في الجزائر اذن لكان المشكل فالما .

(2) نحن نفرض الازدواجية ، اذا كانت تعني اعتماد الفرنسية كوسيلة وحيدة للتفتح على الحضارة المصرية ، لاننا لا نسلم بمجز اللغة العربية عن تادية هذا الدور .

يبقى هنالك نوع من الازدواجية نسميه بالازدواجية التربوية . ويدعو اليه الكثيرون من المرين في العصر الحديث . معناها تعلم اللغات الاجنبية .

والازدواجية بهذا المعنى يمكن اعتبارها اذا كانت لغة التعليم موحدة والعربية لغة تدريس لجميع المواد في جميع المراحل ، يمكن اذ ذلك ان نفكر في تعليم اللغات الاخرى من اجل التفتح والاتصال .

والازدواجية بهذا المعنى بدا تطبيقها في بعض البلدان على سبيل التجربة وهي ما زالت في طور التجربة .

ونحن نستطيع ان نسلم جدلا بان الجزائر في استطاعتها ان تتبنى هذه التجربة في النطاق الوطني العام . وهذا يمكن ان يناقش ويستفاد منه .

التعريب من الناحية العلمية

الجميع يقر بان العملية لا يمكن ان تتم دفعة واحدة . والتدرج نفسه اذا لم يطبق بدقة قد يكون سببا في الفشل وذريعة تتخذ لفرض مبدأ التعريب نفسه .

والتدرج يصطدم بصعوبات أهمها :

صعوبة توفير الوسائل البشرية والمادية والتربوية لتعريب صف كامل (التدرج العمودي من الاسفل الى الاعلى) . وهذا التدرج العمودي منطقي ، ولكن صعب تخطيطه . فهو يضع المسؤولين امام آجال لا تقبل التأخير . وفيه ايضا اجبار التلاميذ على تغيير اداة التعليم فجأة (ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية الآن) : هنالك التدرج الافقي = أن تعرب كل سنة مجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية تعريبا شاملا وفق سلم التعليم .

مثلا = مائة مدرسة ابتدائية

وفي نفس الوقت 10 اعداديات

وبعد سنة 5 ثانويات

وقد يمكن التوسع اكثر اذا سمحت الامكانيات . هذه الطريقة تضمن للتلاميذ ترقيا في السلك يوصلهم الى البكالوريا بدون هائق .

ويمكن ادخال اللغة الاجنبية ابتداء من السنة الرابعة او الخامسة ليتمكنوا من مواجهة تعليم الجامعة بالفرنسية ، اذا لم تكن قد تمكنا من تعريب الجامعة اذ ذلك .

خضم لوحدة التعليم :

هنالك من يرى في هذا التدرج خصما لنظام وحدة التعليم الواقع ان الامر لا يخلو من ذلك . وقد نعيش لفترة طويلة على نظامين تعليميين مختلفان قليلا . ومع ذلك فان الفرق بين النظامين يكون في العلوم الصحيحة فقط . ومن السهل ان تصور التلاميذ الذين يتابعون النظام الانتقالي العاصر بما يحصل لهم من ملكة في اللغة العربية ، يصبحون قادرين على مواصلة تعليمهم العالي باللغة العربية .

هذا التدرج يمكن من التغلب على كثير من المشاكل ، الا انه لا يعفينا ايضا من الاحتياجات البشرية والتربوية والمادية ، ومن الآجال الواضحة .

واخيرا فان تعريب التعليم لا يمكن ان يتم بواسطة الجهاز التقليدي لوزارة التربية ولا بد من انشاء مؤسسات تسهر على حركة التعريب ، وهي في نظري :

(1) مركز وطني لتيسير اللغة العربية ونشرها . لا كجميع ، اذ لا فائدة من ذلك بل مركز يجمع بين البحوث الاساسية في العربية ومحاولة ايجاد الحلول لمشاكل العربية ، وليست العربية بدعا بين اللغات في ذلك . وقد تكون المشاكل في العربية تختلف من حيث الدرجة ولكنها لا تختلف من حيث الطبيعة بالنسبة للغات اخرى .

اتصور المركز ملتقى الباحثين من رجال التربية واللغة والتعليم ، لايجاد احسن الحلول لتعليم اللغة العربية لا في المدرسة وحدها ، ولكن ياساليب عصرية ووظيفية للعديد من الجزائريين المنتمطين للتزود بهذه الاداة التي تمكن من الاسهام الحقيقي في تعميق جذور الثورة وجعل معركة التعريب معركة الشعب .

مدرسة الترجمة

من هذه النواة يمكن الانطلاق لاعطاء مفهوم جديد للترجمة يجعل منها لا عملا هامشيا ، ولكن أساسا لتطوير المجتمع وتنظيم العلاقة بينه وبين الشعوب .

ينبغي اذن تكليف المدرسة برسالة اخرى . لا ينبغي ان تقتنع بتكوين الترجمة للأعمال اليومية ، بل أن ننزع الى تخصيص علماء في مختلف المواد والعلوم لتكريس جهودهم لعمل الترجمة الذي هو على ما اعتقد عمل أساسي في بناء النهضة العلمية .

المؤسسة الثالثة

تنظيم واسع شعبي اعتقد من السابق لاوانه تعود جميع عناصره . ولكن اتصوره على شكل مؤسسة تجمع بين مسؤولين معينين يحتلون مراكز حساسة بالنسبة للعمل الإداري والجماعي ، يسهرون على تطبيق المخطط العام للتعريب وربط تعريب التعليم بتعريب بقية الميادين .

